



تمثلات النسق الاجتماعي في روايات علاء مشذوب

(دراسة في ضوء النقد الثقافي)

تمثلات النسق الاجتماعي في روايات علاء مشذوب

(دراسة في ضوء النقد الثقافي)

م. صفاء جمال داود

قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة صلاح الدين

Safa.dawood@su.edu.krd

أ. م. د. سمير صبري شابا

قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة صلاح الدين

samir.shaba@su.edu.krd

الكلمات المفتاحية: المظاهر الاجتماعية، النسق الاجتماعي، النقد الثقافي، علاء مشذوب.

كيفية اقتباس البحث

داود، صفاء جمال ، سمير صبري شابا، تمثلات النسق الاجتماعي في روايات علاء مشذوب (دراسة في ضوء النقد الثقافي) ،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تشرين الأول ٢٠٢٦، المجلد: ١٦، العدد: ١٠ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مسجلة في
ROAD

مفهرسة في
IASJ

Representations of the Social System in the Novels of Alaa Mashzoub (A Study in the Light of Cultural Criticism)

Lect. Safa Jamal Dawood

Department of Arabic Language / College of Education / Salahaddin University

Asst. Prof. Dr. Samir Sabri Shaba

Department of Arabic Language / College of Education / Salahaddin University

Keywords : Social phenomena; social system; cultural criticism; Alaa Mashzoub.

How To Cite This Article

Dawood, Safa Jamal, Samir Sabri Shaba, Representations of the Social System in the Novels of Alaa Mashzoub (A Study in the Light of Cultural Criticism), Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, October 2026, Volume:16, Issue 10.



This is an open access article under the CC BY-NC-ND license
(<http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>)

[This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.](#)

Abstract

Approaching the cultural structures of the narrative text reveals the limits of systemic convergence in producing meaning within the text. The social system can be described as networks of values, norms, representations, and practices aimed at regulating the behavior of individuals in society, along with the resulting relationships and social phenomena. In this study, the social system is manifested through uncovering the implicit cultural connotations embedded in selected novels by the writer Alaa Mashzoub. The research seeks to examine social reality, its problems and crises, the prevailing and dominant values with their various roots and references, and how individuals deal with these crises. These novels reflect the confrontation between human beings and the effects of wars, social alienation, and the contradictions, fragmentation, and loss of identity experienced by society within a fragile and ambiguous reality. They reveal the stance of the characters toward



this crisis-ridden reality, as they suffer from instability, weakness, and regression. This drives them to search for alternatives and safe spaces, escaping from authority and wars. Furthermore, the novels portray human suffering during the sanctions of the 1990s, which were marked by harshness and the absence of a decent life. Accordingly, the writer presents a comprehensive panorama of the period of tyranny and dictatorship, the practices of authority, and the American occupation of Iraq in 2003, and how individuals confronted brutal and violent phenomena associated with these turbulent stages.

المستخلص

إن مقارنة البنى الثقافية للنص الروائي تكشف عن حدود التقارب النسقي في إنتاج الدلالة داخل النص، ويمكن وصف النسق الاجتماعي بأنه شبكات قيمية من معايير وتمثيلات وممارسات تهدف إلى تنظيم سلوك أفراد المجتمع وما ينتج عن ذلك من العلائق والظواهر الاجتماعية. ويتجلى النسق الاجتماعي في هذه الدراسة من خلال الكشف عن المحمولات الثقافية الكامنة في النص في نماذج من روايات الكاتب علاء مشذوب. يسعى البحث إلى دراسة الواقع الاجتماعي وإشكالياته وأزماته، والقيم السائدة والمهيمنة بمختلف جذورها ومرجعياتها، وكيفية تعامل الإنسان مع هذه الأزمات. فقد عكست هذه الروايات المواجهة بين الإنسان وتأثير الحروب والاستلاب الاجتماعي وما يعانيه المجتمع من التناقضات والتشظي وضياح الهوية في واقع هشّ وملتبس. فكشفت عن موقف هذه الشخصيات من هذا الواقع المتأزم، إذ إنها كانت تعاني من الاضطراب والضعف والنكوص. مما جعلها تبحث عن البديل والمكان الآمن هرباً من السلطة ومن الحروب، كذلك وقد كشفت الروايات عن مكابدة الإنسان إزاء الحصار التسعيني الذي تميّز بالقسوة وغياب الحياة الكريمة، وعليه فقد قدّم الكاتب صورةً أو بانوراما كاملة لمرحلة الاستبداد والدكتاتورية وممارسات السلطة، والاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣. وكيف جابه الإنسان ظواهر تتصف بالضراوة والوحشية التي ترتبط بهذه المراحل العاصفة.

المقدمة:

إنّ مجال النقد الثقافي هو النص وفي هذا السياق يعامل النص بوصفه حاملاً أو وعاءاً للأنساق، فلا ينحصر الاهتمام به بوصفه كياناً جمالياً قائماً بذاته، بل يتجاوز ذلك باتخاذ النص وسيطاً إجرائياً لقراءة الحيل الثقافية الكامنة وراء تموضع الأنساق وانتشارها، وفصح الاستراتيجيات والأساليب التي تمارسها الثقافة في ترسيخ أنساقها داخل الوعي الجمعي. كما أنّ مقارنة النصوص الأدبية في نطاق النقد الثقافي من منظور نسقي تعيد النظر في دوره ولا تكتفي باستجلاء عناصره الجمالية، إذ لا تعامله بوصفه شكلاً فنياً فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى تفكيك أنساقه الثقافية،



واضعة إياه ضمن سياقٍ ثقافي تتصارع فيه الانساق والخطابات وتستكشف بذلك تمثلات السلطة والمعرفة والهوية المتغلغلة في بنيته الخطابية. وعليه فإننا بذلك نسعى إلى تأويل النصوص الأدبية تأويلاً يتجاوز البنية الظاهرة إلى ما تتطوي عليه من انساق معرفية وأيديولوجية تسهم في تشكيل وعي المثقفي وتظهر كيف يكون النص أداةً لتمرير قيم التسلّط والقيم المجتمعية الأخرى. يتصدّى البحث للمظاهر الاجتماعية ومحمولاتها في روايات علاء مشذوب والقدرة على استنتاج واستنطاق القيم الكامنة والكشف عن المسكوت عنه والمضمر في هذه النصوص، ويهدف البحث إلى تقديم نظرة شمولية للخطاب الروائي، وبيان التعالق الاجتماعي والإنساني والقيم التي تحملها هذه النصوص وبيان قدرته على تناول الكثير من الإشكاليات والظواهر الاجتماعية وموقفه منها مثل صراع المثقف والسلطة والصراع الطبقي، واختلاف البيئات الاجتماعية وظاهرة الهجرة والقهر الاجتماعي، فضلاً عن بيان دور المرأة وأما يعكسه في المجتمع، وتمكن الكاتب من تقديم رؤية شاملة وموضوعية عن طبيعة التأزم الاجتماعي ومشكلة البنية الاجتماعية التي تتطوي على التناقض والتضاد والصراع القيمي داخل تلك البنية. وعليه إذ تقوم الدراسة على مقارنة ثقافية من خلال المنهج الوصفي والتحليلي في رصد الظواهر الاجتماعية وتحديد معالمها وطبيعتها ومن ثم تناولها بالبحث، وتحليل عناصرها ودلالاتها وما تعبّر عنه من قيم وكشوفات اجتماعية.

التمهيد:

شهدت استراتيجيات ما بعد الحداثة مسارات وتوجهات وكشوفات جديدة أرست بها معالم الانتقال والتحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، وما اقترن بهذا التحول من ظهور انعطافات معرفية وجمالية تشكل بها تيار انطلق من تأسيسات تتجاوز فكر الحداثة والبحث عن فضاءات واستدلالات ومناهج مختلفة في تناول الأثر الفني وتحليله والاستشراف الفكري والفلسفي الجديد وذلك تماهياً مع التطورات المعرفية التي شهدتها العالم لا سيما بعد الحربين الكونيتين اللتين حملتا بصمة الحداثة وتأثيراتها. فكان لا بدّ من أن تظهر تيارات واستراتيجيات تؤسس لفهم وفكر، وتوجهات حملت في تضاعيفها تأثيرات الماركسية والظاهراتية والبراغماتية وصولاً إلى التفكيكية وتمثلات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، وتزامنت مع توجهات ما بعد الحداثة بظهور دراسات ما بعد الكولونيالية والنسوية والاهتمام بالهامش وكسر الثوابت وخصائص المركز، واستكناء المضمر والمسكوت عنه ونقد الهيمنة والتمركز والتسلّط واشترطات العولمة وتأثيراتها، وظهور المجتمعات الاستهلاكية، والمجتمع ما بعد الصناعي والنيوليبرالية والشركات متعددة الجنسية، وظهور تأثيرات الميثولوجيا وثقافة الاستهلاك وهيمنة الإعلام المؤدلج والجامع لرسم منطق التمرکز والقطبية



الأحادية العولمية. ويرتكز النقد الثقافي بوصفه فضاءً للكشف وليس حقلاً منفصلاً فهو يرتبط ويتعلق مع ميادين ومعطيات أخرى بغية تحليل النصوص واستثمار المنهجيات والاستدلالات في حقول الفلسفة وعلم الجمال والسوسيولوجيا والسياسة والتاريخ. وهناك بطبيعة الحال الكثير من المشتركات بينه وبين الدراسات الثقافية من حيث التوجه الكلي والاختلاف في آليات انتاج الدلالة. ولم تعد الدراسات الثقافية تركز على النصوص والمقولات، ولم تتمكن من الرسوخ ضمن الاتجاهات النقدية إلا مع بداية التسعينات من القرن العشرين، وذلك عندما قدّم (ليتش) مصطلح (النقد الثقافي) لمشروعه النقدي بهذا الاسم لجعله مرادفاً لمصطلح ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، فقد نشأ الاهتمام بالخطاب، وهذا ليس تغييراً في مادة البحث فحسب، بل تغيير في منهج التحليل أيضاً، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسسية، من دون أن يتخلّى عن مناهج التحليل الأدبي. (الغذامي، ٢٠٠٥، ص ٣١-٣٢)، ويبدو من ذلك أنه قد بنى طرحه باتجاه قائم على الفهم الديناميكي للثقافة بوصفها ممارسة اجتماعية حيّة داخل بنية متغيرة تُنتج داخل الانساق الاجتماعية.

والنقد الثقافي كما يرى الغذامي "فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغته، وما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي وما هو كذلك سواء بسواء. من حيث دور كلّ منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همّة كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/ الجمالي، وكما ان لدينا نظريات في الجماليات، فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات" (الغذامي، ٢٠٠٥، ص ٨٣-٨٤).

في دراستنا هذه سنعمد إلى استقصاء ما يتضمّنه المجتمع من الأنساق الثقافية بأنواعها المضمرّة والظاهرة في روايات علاء مشذوب، إذ يمثل الروائي علاء مشذوب أنموذجاً من نماذج الكتاب الذين برزت أعمالهم وأعلنوا عن وجودهم ومنجزهم لمرحلة ما بعد الاحتلال في ٢٠٠٣. وشكّل الروائي وغيره ممن تصدّوا للواقع الجديد تياراً أو اتجاهاً اتسم بخصائص جمالية ومعرفية مغايرة للنمط أو الموروث الروائي العراقي، وإن لم تشكل هذه المغايرة قطيعة مطلقة، لكن طبيعة الواقع المأزوم وإفرازات ما بعد الاحتلال حتمت على كتاب هذا التيار أن يتناولوا موضوعات ومضامين جديدة ترتبط بالمجتمع. منها ما يرتبط باستحضار الواقع المأساوي ونقده في ظل الاستبداد الدكتاتوري والكشف عن القبح التاريخي للحروب والسجون والمقابر ومعاناة الاغتراب والحصار والقمع، ومنها ما يعبر عن وجع المنافي وظاهرة الهجرة الى الخارج، وأخرى تناولت تأزم



الواقع الاجتماعي وتأثير الاقتتال الداخلي ونشوء الصراع الطائفي وتهشم الهويات وظاهرة المجاميع المسلحة. وقد انعكس هذا التناول على قدرة الكتاب على توظيف جماليات وتقنيات سردية جديدة توافقا مع التحولات الجديدة وتطور كتابات الحداثة وما بعد الحداثة وتجاوز الأنماط السردية التقليدية.

وبحسب ما تتوافر عليه النماذج والعينات التي سنتناولها بالتفكيك والتحليل والكشف عن بنيتها العميقة، وما تعبر عنه من قيم مضادة لظاهر النص، وبالمقابل نبين كذلك الأنساق والدلالات الثقافية الظاهرة؛ لكي نعبر عن المعنى الكلي للنقد الثقافي وتتنوع اشتغالاته وتعدّد أساليبه واختلاف وجود الدلالة النسقية والثقافة التي يحملها النص ويتمركز حولها.

الأنساق الاجتماعية وتمثيلات روايات علاء مشذوب:

يمثل الواقع الاجتماعي ومرجعياته الفضاء الذي يعيش فيه الإنسان وتتأسس حياته من خلال المعطيات التي يزودها به هذا الواقع وبمختلف تداعياته وأبعاده، ومن البداهة أن كينونة الإنسان تتكون من اقتران بعدين رئيسيين وتفاعلهما، هما: الصفات والميول التي يرثها بتأثير عامل الوراثة والتكوين الجيني، والملكات والقدرات التي يكتسبها بتأثير البيئة والواقع الاجتماعي الذي يولد فيه ويشترك في تكوين الذات على وفق المؤثرات الاجتماعية، وتتشكل هويته وميوله وخصوصيته وسط هذا المعترك السوسيولوجي، ويكتسب الكثير من القيم والعادات والطقوس والميول والمؤثرات التي يضيفها هذا الفضاء وصيرورته الكلية. وتتضح تحولات الذات من خلال العيش والتفاعل في أصغر وحدة وهي الأسرة ثم تنطلق إلى الفضاء الاجتماعي الخارجي ومؤسساته ومعالمه وموجهاته بمختلف صورها وتأثيراتها الفاعلة. وتتجلى دينامية هذا الانتماء من خلال علاقة الذات بالآخر. سواء أكان أفراد أم مؤسسات ذات طابع اجتماعي. وبناءً على ذلك فإن الواقع الاجتماعي وقيمه وتأثيراته، يمثل جوهر الذات وتكاملها، ويترك هذا الواقع بصماته وخصوصيته في الذات التي عاشت وترعرعت فيه واكتسبت سماته وخصائصه. فالإنسان عموماً هو نتاج البيئة الاجتماعية وتأثيراتها، ومهما حاول أن يكتسب الميل الانفرادي أو الفرداني فإنه لا يستطيع أن ينسلخ أو يخلق قطيعةً كليةً مع الواقع الذي يمثل الحاضنة التي انتجته.

لذا فإن دراسة أو تحليل الذات الإنسانية ترتكز بالأساس على دراسة الواقع الاجتماعي وصيغته وخصائصه وهويته من منطلق الحقيقة العلمية والموضوعية التي تقرر أنّ الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه العيش بمفرده، فهو جزء من الكل الاجتماعي الذي ينتمي إليه ويمثل أحد أفراد، ويعكس في سلوكه وقيمه الكثير من خصائص وسمات البيئة الاجتماعية، ولا يمكن الفصل بين الإنسان وهذه البيئة. ذكر بارسونز أن: "النسق الاجتماعي عبارة عن مجموعة كبيرة من الفاعلين الذين



تقوم بينهم علاقات تفاعل اجتماعي في موقف معين، قد يتخذ مظهرًا فيزيقيًا أو بيئيًا، ويتجهون نحو تحقيق الإشباع الأمثل لحاجاتهم، كما تحدد علاقاتهم الاجتماعية عن طريق بناء ثقافي مميز ومجموعة من الرموز المشتركة" (مرسي، ٢٠٠١، ١٠٣). إذ إنَّ الإنسان هو نتاج الظروف الاجتماعية والعوامل السائدة في المحيط الذي يعيش فيه "حيث تخضع الحياة الاجتماعية لعدد من المؤثرات الثقافية والنفسية والطبيعية والاجتماعية... فالأفراد يتأثرون بالظروف الثقافية والاجتماعية التي تسود مجتمعهم كالعرف والتقاليد وأنظمة الحكم ونماذج العلاقات الاجتماعية التي تحددها المراكز والطبقات الاجتماعية، كما أنهم يتأثرون بالوسط الطبيعي الذي يعيشون ويخضعون للمؤثرات الجغرافية كالموقع والسطح والمناخ والموارد" (حسن، ١٩٨٣، ١٠٧). ووفق هذا فإنَّ المؤثرات الاجتماعية تترك أثرها في تشكيل شخصية الفرد وهويته وميوله والمنظومة القيمية التي يركز عليها ويتحول الفرد إلى كائن اجتماعي. وتتشكل الذاكرة والتاريخ والماضي وسط هذا الفضاء السوسيولوجي. ولا يمكن دراسة أو تحليل أيِّ ملمح أو أي ظاهرة انثروبولوجية دون العودة إلى الفضاء السوسيولوجي وتفحصه. فجوهر الإنسان وصراعاته وأزماته يتجلى في هذا الفضاء الذي يكشف عن الذات والآخر، والذات والموضوع، وكل المظاهر المرتبطة بالسلوك الإنساني.

وعلى وفق هذه المعطيات تتجلى العلاقة العضوية بين النظم الاجتماعية "الأنثروبولوجيا الاجتماعية تقوم على مستوى الوظيفة بدراسة النظم الاجتماعية للمجتمعات بمختلف أنواعها، والأدوار التي تقوم بين مختلف النظم والأنساق في علاقتها بالبناء الكلي، وذلك للتعرف على مدى التشابك بين هذه النظم والانسان، والتي تعمل على تماسك البناء الاجتماعي واستمرار وحدته وكيانه" (بدوي، د.ت، ٢١). وبذلك يظهر النسق الاجتماعي بكل مظاهره وتمثلاته. من خلال التفاعل بين الانسان والمحيط الذي يشترك ويعيش في معتركه، وينتج عن هذه الدينامية ما يمكن أن يكون مرتبطًا بإنتاج الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فالفرد هو نتاج هذه الدينامية وبذلك " فإنَّ الفرد هو الذي يخلق من المجتمع وليس العكس، فإن تغير الظاهرة الاجتماعية يقتضي أن نبحث عن السبب الجوهرية الذي يؤدي إليها فعليًا" (فيرول، ٢٠١١، ٨٧). وطبقًا لهذا المعنى تتم عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع على قاعدة المنطق والسببية. فثمة سبب ونتيجة تمثل الجوهر الحقيقي لوجود الظواهر الاجتماعية.

إنَّ الرواية قادرة أكثر من أي جنس أدبي آخر على التعبير عن العلاقة الجوهرية بين الانسان ومعتركه أو محيطه السوسيولوجي، وتقوم هذه العلاقة على التأثير والتأثر والسبب والنتيجة، والجوهر والمظهر وتحيل بطبيعتها إلى المرجعيات الاجتماعية والتاريخية والبواعث التي أدت إلى

تشكيلها من خلال اللغة السردية والتقانات الفنية التي ينطوي عليها الفن الروائي. وتكشف روايات علاء مشذوب عن توافر النسق الاجتماعي بمختلف مظاهره ودلالاته، سيما وأن أعماله تنتمي إلى الواقعية الاجتماعية في رصد الصراع، وتتصدى للعلاقة بين الفرد والمجتمع، وما تكشف عنه هذه العلاقة من أبعادٍ أخرى، كالبعد السياسي، السيكولوجي والوجودي. فالنسق الاجتماعي يشكل أحد الانساق المهيمنة في أعماله ويتجلى على شكل صور وتدايعات وإحالات مختلفة تكشف عن البنية العميقة للقاع الاجتماعي، وتجسد طبيعة الصراع القائم وتأثيراته على مستوى تشكّل البناء الاجتماعي.

ويلعب هذا النسق الاجتماعي دوراً في تشكّل البنية السردية والبناء الفني، ويؤسس مدخلاً إلى دراسة الانسان والواقع الاجتماعي وهمومه وأزماته وتطلعاته. ويمكن الإشارة الى ثيمات النسق الاجتماعي ودلالاته في ثلاثٍ من رواياته واختيار نماذج منها دون الاعتماد على تسلسلها الزمني المرتبط بتاريخ النشر.

ففي رواية (خريف المدينة القديمة) التي تسرد حكاية أسرة في كربلاء تتكون من خمسة أفراد يصيبها التآكل وتعصف بها المحن، يبرز النسق الاجتماعي جلياً، فيهاجر الابن الأكبر إلى بريطانيا بعد نشوب حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران، ويتعرّض الاب للقتل في أحداث انتفاضة آذار سنة ١٩٩١م، مما يؤدي إلى موت الأم حزناً عليه، ويهاجر الابن الآخر (هارون) إلى بلجيكا.

وبعدّ (هارون) هو الراوي والشاهد، أو ما يمكن أن نسميه بالسارد المتماثل حكاياً بحسب وصف (جيرار جينيت) الذي يصف السارد والمشارك في الحدث (جينيت، ١٩٩٧، ١٨٨). وهناك شخصية الأخت الوحيدة (فاتن) التي يصيبها الوهن وتقادم الزمن وتحوّل إلى كائن معزول وخافت، ومن أسباب محنة هذه الأسرة ما حدث بسبب الانتفاضة وما أقدم عليه النظام السابق من قمع وقتلٍ عشوائي واستباحة المدينة وتجريفها واضطراب الواقع الاجتماعي. ومن خلال معاينة الرواية وتفحصها يتبيّن أنها رواية اجتماعية ورواية مكان. ويتمثل المكان بمدينة كربلاء وما شهدته من أحداث بعد هزيمة العراق في حرب الخليج (حرب الكويت) وما أعقبها من اندلاع انتفاضة اذار التي سميت بالشعبانية. ويتعمق السرد في استطراد أحداث كثيرة والعودة إلى أحداث ثورة العشرين، ويتطرق كذلك إلى المدينة ومحلاتها وأسواقها. وترتكز الرواية على السرد الذاتي بصيغة ضمير المتكلم (برنس، ٢٠٠٣، ٢٢٥). ونجد تأثير النسق الاجتماعي حاضراً من خلال ما حدث للمدينة والمقارنة بين أحداث الماضي والحاضر.



ومن مظاهر النسق الاجتماعي تأثير البيت كونه الإرث الاجتماعي، إذ يسرد هارون دعوة (فاتن) له:

"مرّ أكثر من عقد على مفارقتي العراق هارباً حتى اتصلت اختي فاتن تدعوني بإلحاح وكذلك أخي أزهر لزيارة كربلاء، من أجل التفاوض على بيع بيتنا الذي هو جزء من محلة المخيم المجاورة للحضرة الحسينية. كانت المدينة زجاجاً مهشّماً، فقد عمّ الخراب على كل التفاصيل" (مشذوب 1، ٢٠١٩، ١١). فالبيت هو دال اجتماعي يمثل الحاضنة الاجتماعية. والبيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة، إذ يتعمّق فيه الإنسان بالذكريات، ومن خلال ربط الذاكرة بالخيال واسترجاع لمحات يمكن الدمج فيها بين القديم جداً والذكريات المستعادة (باشلار، ١٩٨٤، ٣٧). وبعد تفرق أفراد الاسرة بدأ التنازع أو ظاهرة التصرف به، وهو نسق اجتماعي مهيم إذ إنّ المكان هو الذي يجمع الاسرة ويمنحها وجوداً اجتماعياً.

فالبيت يمثل دالة من دوال الوجود الانساني والاجتماعي والمكان الذي ينطق بالألفة والحماية وليس مجرد فضاء مكاني وجغرافي بل يحمل الكثير من الدلالات الرمزية والإحالات، وبذلك يتحول البيت بوصفه الحاضنة للأسرة وأفرادها إلى نوع من الانزياح على مستوى الدلالة ويتحول إلى رمز للوجود الاجتماعي ومعلم من معالم الهوية وقد يرمز إلى الوطن وإلى المكان الأليف والمتطابق مع وعي وإرادة وخيار الشخصية. وتتعدد المعاني والدلالات والإشارات إلى البيت ومعانيه ورمزيته المتعددة. "فالبيت مأوى، ذخيرة، أمان مستقبل، رأسمال، خندق، إنجاب، حب، دفاع... وكل هذه الاشعارات تكوينات فضائية لمألوفة علاقة الجسد بالمحيط ولتقضي اللغة المعبرة عنها، وما ينتج من هذه العلاقة من أفكار وإبداع وتصورات" (النصير، ٢٠١٥، ٢٣٢).

ونجد أن المقطع السردى الذي يكشف عن التفكك الاجتماعي والقيمي، وتحول الانسان إلى مرحلة أشبه بالبداية تأثراً بالأحداث والمحن وانتشار ظاهرة النهب والسلب: "كانت كثير من المحلات التي مررت بها، قد تعرّضت للنهب، وبعضها تم حرقه، فقد عاد الانسان الى طبيعته الوحشية الأولى التي تقوم على السلب والنهب، بمجرد أن انهارت القوانين المدنية والأعراف العشائرية وعلا صوت الرصاص" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ١٧).

إن اقتران الاحداث والمحن بالسلوك العدوانى للإنسان قد تبدو ظاهرة تعاني منها المجتمعات بمختلف انماطها "فالمآسى الاجتماعية والذكريات المؤلمة تبقى تترسّب ببطء في أعماق الذات العراقية عبر عصور زمانية متعددة لتؤثر بالتدريج في تركيب البنية النفسية السوية للإنسان العراقي وصرفها عن مسارها الطبيعي فينعكس ذلك بمرور السنين على السلوك والتصرفات النفسية في عموم النشاط الاجتماعي للفرد العراقي دون وعي منه" (ياسين، ١٩٩٩، ٢٠). وهذا



ما يفسر حدوث النهب والسلب والحرق أو ما اصطلح عليه العراقيون بـ(الفرهود)، وهي سلوكيات اجتماعية تعاني منها حتى المجتمعات الراقية والمتحضرة بمجرد أن يغيب القانون والدولة. وهذه الظاهرة الاجتماعية تستبطن نسقاً مضمراً يرتبط بتراكم السلبيات والأحداث والانكسارات التي تظهر وتتفجر دون وعي، وهذا النسق المضمّر يشير إلى نوع من الاحتجاج الداخلي.

في مقطعٍ سرديٍّ من الرواية نفسها يعبر عن روح الانتقام والثأر عند الناس نتيجة تراكم السلبيات وجدة الأحداث، "اجتمعت كل هذه الأسباب لقيام انتفاضة هي أقرب إلى أخذ الثأر من كل معالم الحكومة والدولة، فلم تسلم من انتفاضتهم المدارس والمستشفيات والبلدية والعقاري والبريد ومعظم دوائر الدولة. وفي الوقت نفسه إطفاء نار الخذلان في نفوسهم، وقتل أغلب البعثيين الذين تسلطوا على رقابهم وكانوا السبب في اذلالهم" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٦٣). وتعمق الرواية في تصوير الصراع بين الناس والدولة. ذلك الصراع الذي تفجر إثر هزيمة العراق في الكويت على شكل انتفاضة كبيرة. ومن المعروف في المجتمعات التي تتعرض إلى الانهيار والانكسار والخراب فإنها تتجه باللوم ومعاداة السلطات والحكومات، وتنتشر فكرة أن المال العام هو ملك الشعب وملك الناس، فمصدر الأموال وثروات السلطة هي من الشعب ومن الوطن، ولذا نجد هذه الفكرة هي التي تبرر حالات الخروج على القانون، والنهب وانتشار ظاهرة (الفرهود) التي تمثل نوعاً من الانتقام الداخلي والتعويض عن الحرمان لكن الظاهرة لا تخلو من سلبية وانحراف وتمثل نتيجةً للأنظمة غير العادلة وغير المتوازنة.

وتبرز ظاهرة اجتماعية أخرى تنطوي على نسقٍ مضمّر، وغالباً ما تتكرر في مراحل الاحتدام والحروب والأزمات وهي الهجرة أو النزوح إلى المدن ذات الطابع الديني والمقدس عند الناس: "أخذت الهجرات تتوالى على المدينة من داخل العراق وخارجه، ولم تعد كما كانت من قبل يعرف أهلها بعضهم بعضاً" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ١٢٩).

النسق المضمّر في هذه الظاهرة يكمن في الاعتقاد السائد عند فئة غير قليلة من الناس بأن الأماكن المقدسة التي تحتوي على أضرحة ومراقد هي أماكن تتوفر على قدر كبير من الأمان. وحدث مثل هذا النزوح إلى محافظتي النجف وكرلاء خلال الحرب العراقية الإيرانية وغزو الكويت وحتى مرحلة الاحتلال الأمريكي ٢٠٠٣. لكن هذه الهجرة لا تخلو من بعض التحسس وردود الفعل الاجتماعي، فكل غريب يحتاج إلى زمن لتحقيق الاندماج الكلي وقد يطول هذا الزمن "ينبزون كل جديد بالغريب أو (المعيدي)" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ١٦٤). إذ إن لفظة (المعيدي) مفردة شائعة في التوصيف أو اللغة العامية، وتشير إلى سكان الأهوار. ويطلق عليهم اسم (المعدان)، وهم طائفة تعيش على تربية الحيوانات ومنها الجاموس ثم بيع الحليب ومشتقاته.



ويتصفون بالانغلاق على قيمهم وأعرافهم الريفية التي تعكس خصوصيتهم وهويتهم الاجتماعية والطبقية. وقد تستخدم المفردة أو المصطلح للتقليل من شأن الآخر ووصفه بالنمط البدائي البعيد عن قيم المدينة. وهذا الموقف من الغريب القادم ونعته بهذه النعوت والصفات يكشف عن نسقٍ مضمّر يرتبط بالانتماء والهوية وصعوبة قبول الآخر.

ومن الظواهر الاجتماعية التي أفرزتها الحروب التي شهدتها العراق في العقود الأخيرة، ولا سيما الحرب العراقية الإيرانية، لجوء السلطات إلى منح أسر الشهداء والضحايا سيارات ومنح مالية لإرضاء الناس: "فقد بدأت السيارات الحديثة بالتدفق على العراق، الكرونا والكراون والسوبر والميتسوبيتشي والبرازيلي، تُعطى كتعويض لأهل المقتول في جبهات القتال، وتبعتها بعد فترة سيارات الفولكس فاك، وأصبحت المعارض رائجة بالسيارات. معبأة برائحة القتلى والجرحى والمعاقين والأرامل والأيتام" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٢٥١). وهذه الظاهرة تخفي نسقاً مضمراً يرتبط بسياسة الأرضاء وكسب ود المجتمع ومحاولة تجميل الحرب وجعلها مصدراً للمال والتنعم، وحثّ الأسر على قبول موت الأبناء والتخفيف من صدمة فقدانهم، وكذلك زيادة دخل الفرد ودعم الاقتصاد أيام الحرب: "كان دخل الفرد العراقي في بداية الثمانينيات ممتازاً، حينها كثرت محلات الكماليات والحلويات والعطور والماكياج والحقائب والملابس، وهي دلالات ترف المجتمع وقوة الحركة الاقتصادية" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٢٥٩). وهذا يحيل إلى نسقٍ مضمّر لإسباغ الترف وجعل الحرب أقل وطأة ومن أجل استمرارها. وبطبيعة الحال فإن كل الحروب لا بد أن تُدعم من قوى خارجية على المستوى الاقتصادي.

الرواية ترصد أيضاً سلوكاً اجتماعياً وطبقياً تبنّاه النظام المستبد في العراق، وقد برز هذا التوجه خلال سنوات الحصار التسعيني، ويتجلى في محاولة الإساءة إلى النخبة المثقفة أو الانتلجنسيا والاستهانة بها (الخليل، ٢٠٢٢، ٨١). حتى أن الرئيس في إحدى خطبه التي أذيعت من خلال الإعلام، وقد اعتاد العراقيون على هذه الخطب اليومية، طلب من المعلم والمثقف بالعمل بالطين أو البناء كعامل: "استطاع الحصار بعد أن أفلس حزب البعث من تدمير الانتلجنسيا تماماً، حتى أن رجال الدين أطلقوا فتوى تجيز للآخرين التصدّق على طبقة الموظفين لا سيما المعلمين، بينما تاه أغلب المثقفين في غياهب الجوع والنسيان ومن ظلّ متمسكاً بحافة الثقافة راح يتصعك ليعيش على حافة الحياة" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٢٧٤). وتخفي هذه الظاهرة نسقاً مضمراً يرتبط بموقف السلطة من المثقفين والمتعلمين بوصفهم يملكون وعياً، ومن الصعب - في ظل وجودهم - تمرير المشاريع الخاطئة والسلوك العدواني للدولة وانعدام العدالة، فهم الطبقة الأكثر وعياً والقادرة على نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وتنتهي الرواية بانشغال الاخوان وشقيقتهم فائن



بأمور التركة: "فاتن.. فاتن.. صاح أزهري على اختنا بانفعال كبير، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة ظهرًا، جاءت اختنا مسرعةً نحونا، طلب منها الجلوس أمانًا، ثم بادرها بالقول: يجب أن نهي موضوع التركة الآن؟" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٣٤١).

ونجد أن ظاهرة الصراع الأسري تتزامن مع المراحل والأزمات، لتشير إلى نسقٍ مضمّرٍ إزاء المتغيرات الاجتماعية الجذرية، التي تتطلب من كل فرد المطالبة بحقوقه. وتحقيق نوعٍ من الاستقرار النسبي إزاء الوضع العام غير المستقر. ويتحدث بطل الرواية عن ظاهرة ظلم الاقطاع وما تخفيه من أنساق: "كان الفقر المدقع سلوى للفقراء يجترونها تحت نير الاقطاع، فأبي وأعمامي، وأغلب أبناء عشيرتي هم فلاحون عند بيت نصر الله وحسن أفضل أو ما يطلق عليهم بالنباب، والمنطقة ملك لهم" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ١٤٧). وظاهرة العمل كأجراء عند الشيوخ والاقطاع هي ظاهرة اشتهرت بها مدن الجنوب والفرات الأوسط. المقطع السردى هذا ينطوي على نسق مضمّر يحيل إلى هيمنة بعض الافراد وبعض العشائر على الأرض والزراعة وجعل الفلاحين أجراء للعمل واتساع نفوذ بعض الأشخاص، "وقد ازداد نفوذ العشائر وباتت تمثل اقطاعات امنية، واقتصادية في كثير من مناطق العراق حتى خارج حدود مناطق نفوذها التقليدية أي الريف" (داغر، وآخرون، ٢٠٢٣، ٣٤٠).

ومن الظواهر الاجتماعية التي تكشف عن نسقٍ ثقافي، ظاهرة الانفتاح الاجتماعي التي تبرز خصوصًا إبان الحروب: "كانت مهنة الكماليات رائجة في بداية الثمانينات وهي مقرونة بالوضع الاقتصادي، وكان المجتمع أكثر انفتاحًا، تخرج فيه الفتيات بحرية أكثر، حتى أضحت هذه السوق مرتعًا للكثير من الشابات والطالبات والباحثات عن الزواج، ومن لها حاجة" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٢٣٤) فالانفتاح الاجتماعي وكسر التابو الاجتماعي نوع من النشاط الإنساني يهدف إلى التغلب على محنة الحرب، وإسباغ فكرة أن الحياة مستمرة وطبيعية. وكانت السلطة تشجع مثل هذا التوجّه لتخفيف الضغط وجعل الحرب أقل وطأة وتأثيرًا للإحياء بأن الحياة تجري على نحو طبيعي؛ لذا كثرت المحال التجارية والاهتمام بالمظاهر الشكلية التي توحى بنوعٍ من الرفاهية الزائفة لإخفاء تأثير الحرب. ويسرد البطل تفاصيل كثيرة عن ظاهرة المقابر التي توسعت وانتشرت بسبب كثرة الحروب والاحداث، إذ يقول: "كانت المقبرة قد اختلفت كثيرًا عما تركتها من قبل، فقد تضخّمت اعداد الموتى بما لا يستوعبه عقلي، مساحات شاسعة من الحزن" (مشذوب ١، ٢٠١٩، ٣٣٦). وينطوي النص على دلالة اجتماعية وانتشار ثقافة الاهتمام بالقبور بعد أن كانت المقابر مساحات مهجورة وأن انتشارها وكثرتها دلالة على انتشار الحروب وهيمنة الموت.

النسق الاجتماعي يحضر أيضًا في رواية (بائع السكاكر)، التي تتناول سيرة لأسرة تعاني الفقر والعوز، ويروي البطل الحدث في مدينة كربلاء. الرواية قائمة على بنية دائرية، إذ تبدأ بأحداث الانتفاضة ١٩٩١م وتنتهي بها. ويبدو جليًا أنّ بنية العنوان تتطوي على سيميائية تشير إلى عوالم الطفولة. من نماذج هذا النسق الاجتماعي قضية إطلاق الأسماء على الأبناء، كما في هذا المقطع السردي الذي يتحدث عن إحدى الشخصيات: "إن اسم جدّه (تومان) كان يثير الشبهة في زمن النظام البعثي، كما أن الأسماء في الوقت السابق واللاحق كانت تأخذ من المشاع في المجتمع ومن أسماء المحتلين الذين مرّوا على تراب هذا البلد المسكين والمستباح من قبلهم، فقد كانت أسماء بعضهم (مود) على اسم الجنرال البريطاني، أما من لم يرزق إلا بعد حين فكان يسمى بأسماء غريبة مثل (زباله، جحش، شنكة)، وما يزال بعضًا يعيش حتى يومنا هذا" (مشذوب ٢٠١٨، ٨-٩). تتجلى دلالة النسق الاجتماعي بوضوح في طريقة التعامل مع الأسماء، إذ تكشف عن نسقٍ مضمّر في الوعي الجمعي. فكثيرون يطلقون على أبنائهم أسماء المحتلين لا بقصد تخليدهم، بل على العكس، لاستحضار ذكراهم والتذكير بشرّهم وعدوانيتهم. أما اختيار الأسماء الغريبة فيرتبط باعتقادٍ شائع بأنّ للاسم غير المألوف أثرًا في بقاء صاحبه، ويعبّر هذا التوجّه عن قدرٍ من التفاؤل. وتُعدّ هذه الممارسة ظاهرة اجتماعية متوارثة عبر الأجيال.

ومن مظاهر النسق الاجتماعي ظاهرة طلاق المرأة العاقر، إذ تمثّل نوعًا من المعتقدات والقيم التي تنتشر في الأرياف. وتُعزى دلالات هذه الظاهرة إلى اعتقادٍ فلاحيّ متوارث. فالفلاح يحتاج إلى الأولاد الذكور منهم على الأخص؛ لأن الذكور يتمتعون بقدرة بدنية أكثر من الإناث، لمساعدته في عمله، لذا يحبّذون إنجاب الذكور على الإناث ويعكس هذا الاعتقاد النظرة إلى المرأة بوصفها وسيلة للإنجاب: "تزوج أبي من أمي بعد أن طلق التي قبلها بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، وهذا هو دين الشرقي الذي يعدّ المرأة مشروعًا لإنتاج البنين تحديداً، وبخلاف ذلك فهي مثل خيل الشرطة يجب أن تطلق عليها رصاصة الرحمة" (مشذوب ٢٠١٨، ٢، ١٠). ويتجلى النسق الاجتماعي بوصفه علامة دالة على بنية اجتماعية أو نسقٍ اجتماعيٍّ مضمّر يعكس واقع الفقر والعوز وندرة الموارد: "في الخمسينيات كنا نأخذ التمر الزهدي ونضعه تحت لساننا ونشرب الشاي عليه" (مشذوب ٢٠١٨، ٢، ١٠). فهو يشير إلى عدم توفر السكر إلا لدى الفئات الميسورة. ويُحيل هذا السلوك اليومي إلى سياقٍ تاريخيٍّ أوسع، غالبًا ما يرتبط بأزمة الحروب والمجاعات والأزمات الاقتصادية، حيث تتفاقم مظاهر الحرمان وتتكشف الفوارق الطبقيّة بوضوح.



ونجد دلالات النسق الاجتماعي كذلك في ظاهرة انتشار اللافتات وانتشارها باللونين الأبيض والأسود فالشعارات السلطوية والمناسبات السياسية تكتب على اللافتات البيض، أما اللافتات السود فإنها للقتلى والشهداء. وتعبّر سيميائية اللونين عن نسقٍ مضمّر يعبر عن التناقض بين سلوك السلطة وسلوك المواطنين أو الرعايا، وتستفحل هذه الظاهرة في زمن الحرب. "الحرب مستعرة والطرق السوداء، رسائل شؤم تودع أحياء لتعود بالأموات، والجوامع مزدحمة بالعزاء، والملابس الحزينة تكاد تكون سمة العوائل، وتجار القماش الأبيض للافتات البعثية والشعارات والمناسبات التي لا تنتهي، ومثلهم تجار الزجاج والإطارات الخشبية والمصورون وباعة الأعشاب وكل ما تفرزه الحرب من موتى، أصبح أغلب الشباب يمتلك صورة ينتظر ركنها الأيمن أو الأيسر وشاحاً أسود ليخلق ملف الدنيا ويفتح ملف الاخرة" (مشذوب ٢، ٢٠١٨، ٩٣). والرواية ترصد أيضاً ظاهرة اجتماعية ترتبط بطلبة الصفوف المنتهية، وهي ظاهرة الخوف الذي كان يهيمن عليهم، خشية رسوبهم في الدراسة ومن ثمّ الزجّ بهم الى جبهات القتال: "كان أغلب طلبة السادس العلمي والأدبي يمشون دون وعي، يعيشون دوامة الأمل الضعيف الذي يتعلقون به درءاً للمخاطر التي تنتظرهم على جبهات القتال" (مشذوب ٢، ٢٠١٨، ١١٢).

يعكس هذا المشهد تحولاً عميقاً في البنية الدافعية للتعلّم؛ إذ لم يعد التعليم غاية معرفية أو مساراً للارتقاء العلمي، بل أضحي استراتيجية دفاعية لتأجيل المصير المحتوم المتمثل في الاستدعاء إلى جبهات القتال. وعليه، فإن الخوف من الرسوب لا يفهم ضمن سياق المعايير الأكاديمية المعتادة، بل يتخذ بعداً وجودياً يرتبط بالخوف من الإقصاء إلى فضاء الحرب والموت. ومن ثمّ تتبدّل وظيفة المؤسسة التعليمية في زمن الحرب، لتغدو أداةً لتعليق المصير لا لبناء الكفاءة المعرفية، بما يكشف عن تصدّع بنيتها القيمية ووظيفتها الاجتماعية.

فليس الفشل العلمي هو مصدر الخوف الذي يهيمن على الطلبة، بل هو خوف من مما يقد يؤدي الى عاقبة أسوأ من ذلك، وهي سوقهم إلى جبهات القتال والموت، فتصبح الدراسة-إذن- وسيلةً للنجاة من الحرب وليس وسيلة للارتقاء العلمي. وتكشف الظاهرة عن نسق اجتماعي يشير إلى انهيار التعليم في زمن الحرب، كما تُظهر أثر عسكرة الحياة العامة وهيمنة خطاب الحرب على مختلف مفاصل المجتمع، حيث تتسع دائرة الاضطرابات النفسية والاجتماعية، ويتراجع النسق القيمي لصالح أنماط سلوكية متأزمة ومتناقضة. ولعل شعار (كل شيء من أجل المعركة) الذي رفعه النظام آنئذٍ، يعزز هذا الطرح الذي يذهب اليه الكاتب. فالحرب توفر بيئة خصبة لظهور الاضطرابات وخفوت القيم وانتشار العقد والتأزم الاجتماعي، وينتج عنها قيماً معاكسة ومتناقضة



وسلبية. فالحرب على وفق فرويد "تعزز تناقضات السلطة فيما تريده من مواطنيها وفيما تمارسه حيال الآخر" (فرويد، ١٩٩٢، ١٤).

ونجد الكثير من الظواهر الاجتماعية التي تعكس أزمة المجتمع في زمن الحرب وتحوّل إلى أنساق مضمرة تكشف عن قيم مضمرة لا يمكن الإفصاح عنها. وتجسّد الرواية مشاهد الفوضى والاضطراب ووجود حالات النهب والسلب أو الفرهود الذي يحدث في زمن ضعف الدولة والقانون. ولعلّ هذه السلوكيات تنمّ عن احتقان قطاعات واسعة من الناس من السلطة وتعكس نوعاً من الاحتجاج والثأر من الدولة التي حرّمتهم من حاجات كثيرة، فيلجؤون الى سرقة ما يحتاجونه وما لا يحتاجونه على حدّ سواء. فقد نهب كثيرون أجهزة ومعدّات لم يعرفوا نوعها أو طبيعتها عملها: "امرأة كبيرة تسحب خلفها جهازاً آملّة أن تنتسمّ هواءً بارداً، وعندما استوقفتها أسألها عن السبب من وراء عملها المضني، أجابت أنها تريد أن نهناً بصيفٍ نسّماته باردة، فأخبرتها أن ما تسحبه خلفها هو جهاز تخطيط القلب وليس مكيف هواء" (مشذوب ٢، ٢٠١٨، ١٦٥). يكشف هذا المشهد، المشحون بروح الكوميديا السوداء، عن نسقٍ مضمّر يتصل بعمق الحرمان وحدّته، ويجسّد واقع العوز الذي عاشه المواطن العراقي في زمن الحصار والصدام مع السلطة وتداعيات الحروب. كما يعكس تصوّراً جمعيّاً مفاده أن الاستحواذ على بعض ممتلكات الدولة أو مخلفاتها يُعدّ فعلاً تعويضياً مشروعاً، نابغاً من الإحساس بعدم عدالة الدولة واحتكارها للمال العام، وبأن هذا السلوك يمثّل استرداداً رمزياً لما يُعتقد أنه حقّ مسلوب.

فحين يتزعزع إدراك المواطن لشرعية الدولة وتتآكل قيمتها في وعيه الجمعي، تتشكّل حالة من التآزم في العلاقة معها، فيميل إلى استرداد ما يعدّه حقّاً مغنيّاً بفعل قوانين يراها صورية أو جائزة كانت سبباً في حرمانه منه. ويعبّر هذا التحوّل عن خللٍ عميق في العقد الاجتماعي، حيث تتراجع الثقة بالمؤسسة الرسمية لصالح نزعة احتجاجية ذات طابع فردي أو جمعي.

وتتجلّى دلالة نسقية ذات بعدٍ اجتماعي في خاتمة الرواية، في قوله: "وبعد أن اطمأننتُ على صحة أُمّي، قررت الانسحاب ليلاً بعد أن طلبت من أخي الأصغر أن يخبر أُمّي عند الصباح بأنني ذاهبٌ مع الذاهبين إلى حيث اللا عودة" (مشذوب ٢، ٢٠١٨، ١٩٠). يحيل هذا الاختيار السردى إلى تبني الهجرة والمنفى بوصفهما أفقاً وحيداً بعد إخفاق انتفاضة آذار ١٩٩١م، إذ لم يجد المشاركون فيها ملاذاً سوى الخروج من وطنٍ تحوّل داخله إلى فضاءٍ مغلق تحكمه ثنائية القمع والموت المحتوم.

ويكشف النص، بذلك، عن ظاهرة الهجرة بوصفها نتيجة مباشرة لاستقواء النظام وتكريس مناخ الإقصاء والعنف. كما يضع هذه الظاهرة ضمن سياقٍ تاريخيٍّ أوسع، إذ تعود موجات النزوح إلى



تصاعد الاضطرابات السياسية منذ ثورة أو انقلاب ١٩٥٨ والإطاحة بالعهد الملكي، ومن ثم انقلاب ١٩٦٣، الذي يعدّ من المسلّمات التاريخية. وتفاقمت مع توالي الحروب والأزمات وتعثر المشروع السياسي وضمور فاعلية الدولة، بما جعل الهجرة خياراً اضطرارياً في مواجهة انسداد الأفق الداخلي.

أما رواية (شارع أسود) فتقدّم جملةً من النماذج الكاشفة عن النسق الاجتماعي وتحولاته الدلالية. إذ تتناول مرحلة الحصار في تسعينيات القرن الماضي، وتسلب الضوء على اضطراب كثير من الفنانين إلى عرض لوحاتهم وبيعها في غاليريات الكرادة، في مشهد يجسّد تداخل الإبداع الفني مع ضرورات العيش القاسية. وتبرز الرواية معاناة الفنانين والمثقفين تحت وطأة العوز الاقتصادي والقيود السلطوية، كاشفةً هشاشة موقع المثقف في سياقٍ تتنازع الحاجة المادية والضغط السياسي، كما تفتح الرواية على تفاصيل الحياة اليومية والهامشية، مستثمرةً ما هو عابر ومهمّل بوصفه حاملاً لدلالاتٍ عميقة، لتعبّر من خلال ذلك عن أزمة المثقف في علاقته بالسلطة من جهة، وبواقع اجتماعيٍّ مأزوم ومشحون بالتناقضات من جهةٍ أخرى.

ارتكزت بنية السرد فيها على السرد الذاتي وبصيغة ضمير المتكلم الذي تمثله شخصية (زاهد). وقد وظّف الكاتب تقنية الميتا سرد، أي رواية داخل رواية (برنس، ٢٠٠٣، ١٠٩). تكشف الرواية عن علاقة (زاهد) بصديقه المغترب (ناجي). ويمكن ملاحظة رمزية الأسماء، ف(زاهد) يرمز إلى الحصار، و(ناجي) يرمز لمحاولة النجاة من واقع الحصار، ويتبدّى النسق الاجتماعي في قوله: "لم يستطع ناجي طيلة الفترة الماضية في استراليا تكوين تاريخ من العلاقات مع الشوارع والأشجار والبنائيات والبيوت والسيارات والمحال التجارية. وظلّ يئنّ بالحنين الى تاريخه القريب مثل امرأة نضب رحمها من الإنجاب وتحول إلى مكبٍ للمتعة فقط" (مشذوب ٣، ٢٠١٩، ١٤). والمعنى أو النسق يرتبط بحالة الغربة التي تسببت بها الهجرة ووجع المنافي والشعور بالحنين الطاغى أو النوستالجيا، فهو حنين يشعر به الأفراد نحو الماضي بكلّ تفاصيله، ويكابه الانسان المغترب على وجه الخصوص. وتحيل الهجرة إلى نسقٍ مضمّر، إذ إنّ الحنين إلى الماضي هو الذاكرة المثقلة بالقيم التي تعين الفرد على التفريق بين ما هو خير وما هو شر (الخليل، ٢٠٢٢، ٦١١)، أي إلى المسببات أو البواعث التي تدفع الانسان أن يختار البعد مكانياً تخلصاً من معاناة البقاء في الوطن الذي استحال إلى جحيم وواقع مأساوي، فيختار الانسان البعد عنه ليس بوصفه ترفاً أو تنعماً، وإنما اضطراراً وضرورة وجودية.

وعليه فإن "حالة الاغتراب تجعل الانسان يعيش في واقع زائف يجعله ينفصل عن ذاته نتيجة ارتباطه بعالم غريب عنه وخضوعه للامتثال، وبسبب تخليه عن حريته مما يؤدي إلى ضياعه في



عالم مجهول وهي حالة التضحية بالحرية وخصوصية في مقابل الاطمئنان الزائف وكما عبّر كيركجارد بان الاغتراب هو ضياع للذات الإنسانية" (عباس، ٢٠٠٨، ٢٥٩). ويكمل بطل الرواية حديثه عن الغربة بوصفه نسقاً اجتماعياً يحمل الكثير من الدلالات: "فالكثير من الذين سافروا أصابته النوستالجيا وعادوا مخدولين، ومنهم من تحوّل إلى خنزير أو نادل في نادٍ ليلي، وقليل منهم من استطاع امساك نفسه والحفاظ على قيمه، ومثلهم كثير من العراقيين الذين صهرهم الجوع والعوز حتى مسخوا" (مشذوب ٣، ٢٠١٩، ١٥).

وتؤدّي الغربة وقسوتها إلى نوعٍ من الاغتراب، والاغتراب والنوستالجيا متلازمان يحيلان إلى نسقٍ مضمّر يرتبط بالأسباب والدوافع التي جعلت الانسان يختار جحيم الغربة. وهو نسقٌ يكشف عن غياب الوطن وفقدان المكان الأليف، وأنه اضطرار وليس تنعمًا مثل السفر العابر أو السياحة الجميلة.

وثمة ظاهرة ترتبط بالنسق الاجتماعي، مشحونة بالدلالات، وهي ظاهرة هجرة أبناء المحافظات إلى بغداد والتوجه إليها، وهي ظاهرة متعددة الدلالات، ومعظم روايات علاء مشذوب تتطوي على فكرة توجه أبناء كربلاء إلى بغداد ولأسباب متعددة، منها للدراسة أو بحثاً عن المتعة، أو هرباً من السلطة، أو رغبة في التغيير. فبغداد تمثل المركز وهي مقر الحكومة والسلطات، والمنشآت الثقافية وأماكن اللهو والترفيه وغيرها من المعالم الحضارية إلى جانب رمزية المكان. "طلبة المحافظات طيور مهاجرة مهما ابتعدت عن موطنها الأصلي سرعان ما يقتلها الحنين ليعود بهم. باستثناء من يتسرب منهم ليكابر البعد أنيئاً، فيحتشد الشوق تجاعيد زمن على خريطته اليومية. نعم كل شخص يأتي إلى بغداد طالباً أو زائراً يفكر بالاستقرار فيها، لكنه يكتشف يوماً بعد يوم أن ألم الفراق أشقى من رغبة الدهشة والاستيطان، وأن البواكير الأولى للطفولة والصبا أعتى من مرساة السفينة التي تسحبه بسلسلة من حديد إلى تلك الأعماق الغائرة" (مشذوب ٣، ٢٠١٩، ١١٢).

يكشف النسق المضمّر في ظاهرة الهجرة إلى المدن الكبرى، ولا سيما إلى مدينة بغداد، عن واقعٍ متردّد في تلك المحافظات، وخصوصاً في الأرياف، حيث يتفشّى الفقر والعوز وتغيب مقومات الحياة الأساسية. ويتجلّى في هذا السياق تداخلٌ واضح بين نسقين ثقافيين متقاطعين داخل المجتمع؛ إذ يُعدّ النسق المدني المحرّك الرئيس لديناميته، بينما يأتي الريف في موقع التابع من جهة. ومن جهة أخرى، يمثّل النسق المدني الثقافة الرسمية السائدة، وهو الحاضن للمدنيّة والاستقطاب، في حين يُوضَع النسق الريفي في هامشها، كونه مرهوناً إلى أحكام القيم السلبية التي ترتبط به. فالمدينة لا تستمدّ مدنيّتها من حدودها الجغرافية بقدر ما تستمدّها من نسقها



الثقافي، وهو ما يجعلها مرهونةً إلى أحكام القيم الإيجابية، وقد تتبين أهمية المدينة كرقعة تسيطر فيها قوة الجذب التي تتميز بها، وتعكس بذلك موقفًا واضحًا من النسق المدني تجاه النسق الريفي. ومن ثم تغدو الهجرة تعبيرًا عن تطلّع إلى التحضر وطلبًا للعيش في فضاءٍ أوسع من الحرية والانفتاح، بما يعكس صراعًا خفيًا بين قيم المدينة ونزعات التريف.

ويمكن الاستدلال على ظاهرة تريف المدن من خلال انتشار موجات متتالية من الهجرة الداخلية من مدن الجنوب في العراق إلى العاصمة بغداد وحدث هذا الاشتباك الديموغرافي والقيمي وثنائية المكان الأليف والمعادي بعد أن تعرّض السكان في الجنوب إلى الفقر والأمراض والاستغلال الطبقي وبروز سيطرة وهيمنة (الشيوخ) و(النراكيل) وهم ملاك الأرض المتحكمين بالفلاحين وظهر التصادم القيمي وظاهرة تريف المدن، ورصد تأثير المكان على الشخصية ووعيها وهويتها "إن القيم التي تحملها الشخصية (المدنية) في المدن هي غير القيم التي تحملها الشخصية الريفية (في الأرياف) في العراق، هكذا نشأت التناقضات بعد اصطدامها في القرن العشرين إثر تأسيس الدولة العراقية (المملكة وبعدها الجمهوريات) كما ان المجتمع قد اختلط بأساليب عشوائية غير منظمة" (الجميل، ٢٠٢١، ١٢٦)

ووفق هذا المنحى عكست روايات علاء مشذوب هذا التداخل الديموغرافي ورصدت حركة الهجرة المكانية لا سيّما هجرة الشخصيات من مدينة كربلاء باتجاه بغداد ولأسباب طبقية وسياسية أو لغرض الدراسة والعمل والعيش في العاصمة بوصفه نوعًا من التطور والرقي.

ووفقًا لهذه المعطيات والإحالات والرصد والتحليل يمكن إدراك التأثير والدور الذي يؤديه النسق الاجتماعي في تشكيل الشخصية أو الذات الانسانية وتشكيل وعي وهوية البنية الاجتماعية الكلية من خلال هيمنة ورسوخ المنظومة الاجتماعية وبما تمثّله من تقاليد وموروثات، وعادات ومعتقدات في رسم ملامح العقل الجمعي وصياغة الذاكرة الاجتماعية وما تعكسه الظواهر الاجتماعية التي تكشف عن هيمنة القيم الاجتماعية في صياغة السلوك وانماط التفكير الاجتماعي. مما يُفضي إلى تكوين منظومة اجتماعية وأخلاقية تمثّل نوعًا من العقد الاجتماعي ورسوخ قيم أخلاقية وسلوكيات تكشف عن جوهر هذا الانتماء وتمثّلات هذا النسق في تكوين الشخصية وميولها وعاداتها. مما ينعكس على البيئة الكلية للمجتمع وتوجّهاته وجوهره. وعليه يعدّ النسق الاجتماعي من اهم الانساق الثقافية التي تعيد تشكيل الإنسان من حيث المعتقدات والميول والسلوك مما يضيف عليهما أهمية كبيرة في كل تفاصيل الحياة الانسانية.

النتائج:

من خلال مقارنة الأنساق الثقافية والاجتماعية في روايات الكاتب علاء مشذوب الثلاث، فقد توصلت الدراسة إلى جملةٍ من النتائج، هي كالآتي:

١. إن تحليل النصوص الروائية من المنظور الاجتماعي وقيمه وظواهره يكشف عن معاناة الشخصيات والابطال، ففي أغلب الروايات نكاد لا نجد بطولة فردية، بل إنها تقدّم بطولة جماعية لمجموعة من الشخصيات التي تعاني من ضراوة وقسوة الواقع الاجتماعي من الغربة والاغتراب والنكوص الذاتي، والتناقضات التي يولّده الصراع بسبب الحروب والهيمنة السلطوية، وكذلك تناقضات الانسان مع الآخر وإشكاليات البحث عن الذات والكينونة والهوية.

٢. جسدت الروايات ظاهرة البحث عن المكان الأليف من قبل شخوصها والتي غالباً ما تسعى إلى محاولة الانتقال من محافظة كربلاء والهجرة إلى العاصمة بغداد، وذلك بسبب القهر والمضايقات السياسية أو البحث عن الحرية، أو بسبب الدراسة، أو البحث عن العمل لاسيّما في مرحلة الحصار الاقتصادي.

٣. تنتمي روايات علاء مشذوب عمومًا إلى المدرسة الواقعية التي قادته لأن يقدم الواقع الاجتماعي بالأسلوب المباشر أو التجسيد الفوتوغرافي، دون المغالاة في الجانب الفني والاستغراق في الغموض أو الحبكة المعقّدة. فهو يُعنى بتقديم الرسالة الاجتماعية أكثر من أي شيء آخر. وعليه فإنه يقدم الواقع بشكلٍ مباشرٍ ودقيقٍ، إذ نجد الكثير من الظواهر الصادمة في سردٍ يخلو من التزييق أو الواقع الخيالي؛ فهو ينطلق من عمق المجتمع وأحلامه وتطلعاته، ومعاناته وانكساراته، لذا نجد أن رواياته يهيمن عليها الواقع الكابوسي، لذا فإنها تتّسم بالديستوبيا الذي يجسّد المكان المحاط بالمخاطر والأزمات.

٤. عُنيّت هذه الروايات بتقديم صورٍ ساطعة عن المرأة العراقية ومعاناتها في ظل الظروف الاجتماعية الصعبة، وقوتها في مجابهة الواقع. إذ نجد نماذج للمرأة المضحية التاريخية والأسطورية بصورة إيجابية، فهي تمثّل البُعد الكلي للحياة والمجتمع.

٥. اهتمت الروايات بواقع الأقليات في العراق وطبيعة علاقاتها ووجودها الاجتماعي، وأزمة الهوية والصراع الهوياتي والقيمي الذي ينشأ بين هذه الأقليات والمجتمع القائم. وعليه فقد قدّم صورة عن المجتمع العراقي الذي يتّسم بالانفتاح على الأقليات. والاحتواء الإيجابي لها. وهذا ينعكس في المهن التي امتهنتها هذه الأقليات حيثُ تعايشت مع المجتمع العراقي بعيداً عن الإقصاء وخطاب الكراهية.

المصادر والمراجع:

- باشلار، غاستون. (١٩٨٤). **جماليات المكان** (الإصدار الثاني). (غالب هلسا، المترجمون). بيروت - لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- بدوي، أحمد زكي. (١٩٧٨). **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية** (الإصدار الثاني). بيروت - لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- برنس، جيرالد. (٢٠٠٣). **قاموس السرديات** (الإصدار الأول). (السيد إمام، المترجمون) القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات.
- الجميل، سيار. (٢٠٢١). **الشخصية العراقية، تفكيك الأنماط والتنوعات وإعادة التشكيل، دراسة في سوسيولوجية وسايكولوجية المجتمع العراقي المعاصر** (الإصدار الأول). بغداد: مكتبة دار دجلة للنشر والتوزيع.
- جينيت، جيرار. (١٩٩٧). **خطاب الحكاية / بحث في المنهج** (الإصدار الثاني). (محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي المترجمون). القاهرة - مصر: منشورات المجلس الأعلى للثقافة.
- حسن، حسين الحاج. (١٩٨٣). **علم الاجتماع الأدبي** (الإصدار الأول). بيروت - لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الخليل، سمير. (٢٠٢٢). **دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي** (الإصدار الثاني). بغداد: الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.
- داغر، منقذ، وغيلفاند، ميشيل. (٢٠٢٣). **ثقافة التصلب، منظور جديد لفهم المجتمع العراقي** (الإصدار الثاني). بغداد: دار الذاكرة للنشر والتوزيع.
- عباس، فيصل. (٢٠٠٨). **الاغتراب - الانسان المعاصر وشقاء الوعي** (الإصدار الأول). بيروت - لبنان: دار المنهل اللبناني.
- علوش، سعيد. (١٩٨٥). **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة** (الإصدار الأول). لبنان - بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الغدامي، عبد الله محمد. (٢٠٠٥). **النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية** (الإصدار الثالث). الدار البيضاء - المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
- الغدامي، عبد الله محمد، وإصطيف عبد النبي (٢٠٠٤). **نقد ثقافي أم نقد أدبي؟** (الإصدار الأول). سوريا - دمشق: دار الفكر.
- فرويد، سيجموند. (١٩٩٢م). **الحب والحرب والحضارة والموت** (الإصدار الأول). (عبد المنعم الحفني، المترجمون). القاهرة: دار الرشيد، طبع. نشر. توزيع.
- فيريول، جيل. (٢٠١١). **معجم مصطلحات علم الاجتماع** (الإصدار الأول). (أنسام محمد الأسعد، المترجمون). بيروت - لبنان: دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.
- مرسى، محمد عبد المعبود. (٢٠٠١). **علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي - دراسة تحليلية نقدية** (الإصدار الأول). السعودية - القصيم: مكتبة العليقي الحديثة
- مشذوب، علاء. (٢٠١٨). **بائع السكاكر** (الإصدار الأول). دمشق - سوريا: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.





• مشذوب ١ علاء. (٢٠١٩). **خريف المدينة القديمة** (الإصدار الأول). دمشق: تموز - ديموزي للطباعة والنشر والتوزيع.

• مشذوب ٣، علاء. (٢٠١٩). **شارع أسود** (الإصدار الأول). بغداد: دار سطور للنشر والتوزيع.

• نصير، ياسين. (٢٠١٥). **مدخل إلى النقد المكاني** (الإصدار الأول). دمشق - سورية: دار نينوى.

• ياسين، باقر. (١٩٩٩). **تاريخ العنف الدموي في العراق: الوقائع - الدوافع - الحلول** (الإصدار الأول). بيروت - لبنان: دار الكنوز الأدبية.

•References

•Bachelard, Gaston. (1984). **The Poetics of Space** (2nd ed.). Beirut: University Institution for Studies, Publishing and Distribution.

•Badawi, Ahmed Zaki. (1978). **Dictionary of Social Science Terms** (2nd ed.). Beirut: Lebanon Publishers Library.

•Prince, Gerald. (2003). **Dictionary of Narratology** (1st ed.). Cairo: Merit Publishing.

•Al-Jamil, Sayyar. (2021). **The Iraqi Personality: Deconstructing Patterns, Diversities, and Reconstruction – A Study in the Sociology and Psychology of Contemporary Iraqi Society** (1st ed.). Baghdad: Dijla Library.

•Genette, Gérard. (1997). **Narrative Discourse: An Essay in Method** (2nd ed.). Cairo: Supreme Council of Culture.

•Hassan, Hussein Al-Haj. (1983). **Literary Sociology** (1st ed.). Beirut: University Institution for Studies and Publishing.

•Al-Khalil, Samir. (2022). **Guide to Cultural Studies and Cultural Criticism Terminology** (2nd ed.). Baghdad: Iraqi Writers Union.

•Dagher, Munqidh & Gelfand, Michele. (2023). **Tightness Culture: A New Perspective for Understanding Iraqi Society** (2nd ed.). Baghdad: Memory Publishing House.

•Abbas, Faisal. (2008). **Alienation: Modern Man and the Misery of Consciousness** (1st ed.). Beirut: Lebanese Dar Al-Manhal.

•Alloush, Said. (1985). **Dictionary of Contemporary Literary Terms** (1st ed.). Beirut: Lebanese Book House.

•Al-Ghadhami, Abdullah Mohammed. (2005). **Cultural Criticism: A Reading of Arab Cultural Systems** (3rd ed.). Casablanca: Arab Cultural Center.

•Al-Ghadhami, Abdullah Mohammed & Istif, Abdel Nabi. (2004). **Cultural Criticism or Literary Criticism?** (1st ed.). Damascus: Dar Al-Fikr.

•Freud, Sigmund. (1992). **Love, War, Civilization, and Death** (1st ed.). Cairo: Dar Al-Rasheed.

•Ferriol, Gilles. (2011). **Dictionary of Sociology Terms** (1st ed.). Beirut: Al-Hilal Publishing House.

•Morsi, Mohammed Abdel-Maaboud. (2001). **Sociology in Talcott Parsons: Between Action Theory and Social System – A Critical Analytical Study** (1st ed.). Saudi Arabia: Al-Aliqi Library.

•Mashzoub, Alaa. (2018). **The Candy Seller** (1st ed.). Damascus: Ninawa Publishing.

•Mashzoub, Alaa. (2019). **Autumn of the Old City** (1st ed.). Damascus: Tammuz Publishing.

•Mashzoub, Alaa. (2019). **Black Street** (1st ed.). Baghdad: Sutour Publishing.



- Nasser, Yassin. (2015). *Introduction to Spatial Criticism* (1st ed.). Damascus: Ninawa Publishing.
- Yassin, Baqir. (1999). *The History of Bloody Violence in Iraq: Facts – Motives – Solutions* (1st ed.). Beirut: Literary Treasures House.

